**ماستر تاريخ المغرب العربي الحديث**

**المادة: تاريخ تونس الحديث**

***تونس في عهد الاسرة الحسينية(1705-1881)***

- **الدرس السابع:**

**نشاة الدولة** ا**لحسينية** :

اعطى حكم اخر البايات المرديين وهو مراد الثالث (1699-1702) المبررلزوال هذه الاسرة بما عرف عنه من الظلم والتعدي على السكان وساهم ذلك في اضطراب الاوضاع الداخلية وتأزم الاوضاع الاقتصادية والمالية ن، وفقدت الاسرة المرادية بسبب هذا كله رصيدها لدى التونسيين .وتوصل ابراهيم الشريف سنة 1702 الى مقتل مراد الثالث بناء على امر السلطان العثماني .وتسلم السلطة في تونس ..عرف عن ابراهيم الشريف تعصبه للعنصر التركي وسمى نفسه باسم( الداي والباي والباشا ) واستبد بالامور خلال فترة حكمه(1702-1705) حيث مارس الظلم وطبق الاستبداد واعد قواته لمحاربة داي الجزائر.

غير ان الصعوبات التي مرت بها البلاد في السنوات الاولى من القرن 18م عجلت بتولي مقاليد الحكم رجل يدعى حسين بن علي وتطلع الجميع اليه كمنقذ للبلاد مما هي فيه من فساد اداري وفوضى وظلم شامل .وتمثلت الصعوبات في الازمة الاقتصادية التي عرفتها تونس حيث تعطلت التجارة نتيجة لركود الاسواق في الخارج وتعطلت المساحات المغروسة وتضررت الزراعة نتيجة المحاصيل الزراعية الرديئة وظهور القحط في سنتي 1702و1703 والشهر الاول من سنة 1704 الى جانب تقلص النشاط الحرفي .وتسبب النقص في العملة في كساد التجارة. ومما زاد من تفاقم الازمة الاقتصادية هو ظهور الوباء في جنوب البلاد وفي الحاضرة بداية من سنة 1705 لينتشر في كامل البلاد.وهكذا انهارت الدولة المرادية ليفسح المجال للدولة الحسينية. **تجربة الحكم الوراثي للسلالة الحسينية : ولاية حسين بن علي(1705-1735) :** بويع حسين بن علي حاكما على البلاد بإجماع عام من العلماء والأعيان وأكابر الجند. وتمكن من فرض نفسه على الجميع.وفي سنة 1708 حصل على فرمان التزكية من اسطنبول، وهذا ما مكنه من تسيير امور الدولة بكامل الجدية والحزم في احتكار القرارات على جميع الاصعدة .من الاعمال التي قام بها اثناء فترة حكمه (1705-1735)نذكر ما يلي - من الناحية الامنية عمل على ضرب العناصر المشاغبة والمعارضة وتوفير امن الطرق وذلك لحماية القوافل التجارية - قام بتحصين المواقع الدفاعية لحماية البلاد من الهجمات الخارجية وبالذات انصرافه الى ترميم اسوار مدينة تونس . - من الناحية الاقتصادية قام بتشجيع الزراعة وذلك بتخفيف الضرائب على المزارعين .وكذلك تشجيع الصناعة وإعادة مجدها القديم . - قام ببناء قصر باردو واتخذه مقرا رسميا للحكومة. –اعتنى بإحياء معالم مدينة القيروان التي تعرضت للخراب اثناء الحروب بين افراد الاسرة المرادية . - بادر الى اعادة تنظيم القضاء في اتجاه الحد من نفوذ العناصر التركية . –ابطل جلب قاضي العسكر من اسطنبول وعين بدلا عنه علماء ن الحاضرة . واذا كانت فترة ما بين 1705و1729 عرفت تونس فترة من الاستقرار والهدوء والاستقرار فان بعدها اي منذ سنة 1729 بدا الاضطراب من جديد في تونس حينما اعلن علي ابن اخي حسين الثورة على عمه.ونتج عن هذا الصراع الداخلي ضمن الاسرة الحسينية بين الباي حسين وابن اخيه علي انقسام البلاد الى حسينية نسبة الى حسين وباشوية نسبة الى علي .وعرف اتباعهما بالحسينية والباشية.وأتيح لداي الجزائر التدخل في هذا الصراع ومساعدة علي باي للوصول الى حكم تونس سنة 1735. ونجح علي باشا في قتل الباي حسين بعد اقتحامه القيروان سنة 1740**.**

**الدرس الثامن:**

**ولاية عهد علي باشا (1735-1756):**  كانت فترة حكم علي باشا مضطربة، فقد ظلت اثار الانقسام السابق بين باشية وحسينية قائمة. واستمر التدخل الجزائري يقلق علي باشا ذلك لان اولاد حسين بن علي لجئوا الى الجزائر واستغل داي الجزائر وجودهم للضغط على تونس.ولكي يدعم حكمه عمد علي باشا الى الاستكثار من الجند وجلب المتطوعين الاتراك لتقوية جيشه واستخدام فرسانا من السود لحراسته سماهم(البوابة). وكانت هذه التصرفات قد شكلت تهديدا خطيرا لحكمه الذي اتجه نحو الاستبداد والظلم لذلك عمد الكثير من المعارضين له الى الهروب الى الجزائر وتقوى بهم اولاد حسين بن علي.ولما لمس حكام الجزائر .ضعفه وان الجميع ضده قرروا التدخل من خلال اولاد حسين بن علي، فتحركت القوات الجزائرية سنة 1756 فاستولت على الكاف ومنها اتجهت الى تونس العاصمة . وأمر داي الجزائر بقتل علي باشا وتسليم الامر الى اولاد حسين بن علي . بعد استرجاع اولاد حسين بن علي حكم تونس بمساعدة الجزائر اتفقوا على اقامة نظام جديد فيما بينهم ينص على ان يرث الحكم اكبر افراد الاسرة سنا .وبموجب ذلك فقد تسلم محمد السلطة الاسمية .اما علي فقد تسلم السلطة الفعلية .وفي سنة 1759 توفي محمد فانفرد علي باي بالسلطة . **ولاية علي باي بن حسين (1759-1782**): عمل علي باي على استعادة الامن والاستقرار بالبلاد واعتماد سياسة اللين والتسامح مخففا بذلك الى حد بعيد اضرار الانقسام السابق كما قام .في الوقت نفسه بمعالجة الاوضاع الاقتصادية المتدهورة بسبب الفوضى السائدة .وكان هدفه اعادة الحياة الى مختلف الانشطة الاقتصادية وذلك بتشجيع الانتاج الوطني وتشجيع التجارة فأمد التجار بقروض دون فوائد .والغى الكثير من الضرائب على الفلاحين واهتم بتوفير المياه اللازمة لري مساحات واسعة من الاراضي وقد .ارتبطت تلك الانتعاشة الى تحسن العوامل الطبيعية وتجاوز البلاد لسنوات القحط .كانت سياسة علي باي تعتمد على زيادة الانتاج اكثر من زيادة الضرائب وهذا ما جعل البلاد تشهد نقلة متميزة في الميدان الاقتصادي .وقبل وفاته جابه علي باي مسالة الوراثة وفي النهاية اقر ابنه حمودة ليتولى حكم تونس.

: **الدرس التاسع**

**ولاية حمودة باي(1782-1814)** : يعد من ابرز رجال الاسرة الحسينية وصف عصره بأنه العصر الذهبي .وقد عمل على نشر الاستقرار والازدهار وتجلى ذلك في الاصلاحات التي ادخلها في جميع الاصعدة .لقد اعتمد الحكمة والمشورة في اعماله فاستعان بأهل الحل والعقد من العلماء والأعيان في كثير من القرارات فبل تنفيذها. كما اعتمد على شخصيات بارزة في الادارة امثال الوزير يوسف صاحب الطابع ورئيس الكتبة محمد بن محمد الاصرم وقائد الجيش سليمان كاهية مكنه من ادارة البلاد وتحقيق نهضة اقتصادية واسعة عمت مختلف المجالات الزراعية والصناعية والتجارية .وكان حمودة باشا يشجع الانتاج الوطني ويفتخر بالصناعة المحلية ويحض الناس على اقتنائها وقد لجا الى تهيئة المال اللازم لتحقيق النهضة الاقتصادية في عهده مطبقا سياسة التقشف لتغطية العجز المالي .ولجلب الاموال لجا الى بيع وظائف الولاة والجباة وأوجد ما يسمى بنظام المشارطة او الاتفاق وهو يختلف عن نظام الالتزام غيران هذه العملية انجر عنها نتائج سلبية رغم تحقيق مدا خيل اوفر للدولة . . اولى حمودة باشا الجيش اهمية خاصة وذلك لضمان المناعة والاستقلال للبلاد بإزالة الانقسام الذي اضر بتونس ومشاركة التونسيين في الجيش الى جانب الاترك العثمانيين قاصدا من ذلك خلق توازن بينهما. وقد عمل على تطوير القدرات العسكرية استعدادا لمواجهة الاخطار الخارجية فاعتنى بالتحصينات وطور انتاج الاسلحة والمعدات الحربية ورفع من عدد الجند .ومن المصانع العصرية التي انشاها بتونس العاصمة (دار البارود) وأيضا عدة معامل لصناعة المدافع وقذائفها .وأعاد بناء الترسانة البحرية فازداد حجم اسطوله الى خمسين سفينة حربية في سنة1813.

تحققت في عهد حمودة باشا نهضة عمرانية في المباني العسكرية مثل القلاع الاسوار الابراج والثكنات ... كما اعتنى بالمباني المدنية منها التعليمية والدينية والترفيهية مثل المدارس المساجد الحمامات و القصور .. ....

كانت مشكلة العلاقات مع الجزائر من اهم ما واجهه حمودة باشا .ففد شن هجمات ضد الجزائر التي كانت دوما تطمع في مد نفوذها على تونس.وقرر ان ينهي هذا الوضع ولكنه كان بحاجة الى المال والجند فعمد الى تهيئة اموره قبل البدء بالصدام.وبالفعل حين استكمل بأسباب القوة بدا يتصلب في موقفه من الجزائر .وفي سنة 1807 شن الجيش التونسي هجوما على قسنطينة وكاد ان يستولي عليها ولكن نجدة من الجزائر نجحت في انقاذ المدينة وطرد القوات التونسية.وامتد الصراع ال البحر المتوسط بين الجزائر وتونس وتدخل السلطان العثماني اكثر من مرة للتوسط في عقد الصلح . وفي اواخر عهد حمودة باشا وبالذات في 30اوت 1811 قام الجند التركي بالثورة عليه وتصدى لهم . وتعود اسباب هذه الثورة الى اشراك الكراغلة وأناس من ابناء البلاد في الجيش وهذا ما اثار الجند التركي الذين شعروا بنوايا الباي للحد من قوتهم او التخلص منهم في المستقبل. توفي حمودة باشا سنة 1814 تاركا لأخيه ابي النور عثمان دولة قوية فالجزائر لم تجرؤ على مهاجمته او التعدي عليه ولكن لم يدم حكم ابي النور عثمان طويلا فقد لجا ابن عمه وهو اكبر منه في الاسرة الحسينية ابو الثناء محمود الى التآمر ونجح في قتل عثمان وحل محله سنة 1814

**الدرس العاشر:**

**ولاية ابو الثناء محمود(1814-1824)**

تمكن الباي الجديد من حسم الخلاف بسرعة بين الجند دون اقتتال وحاول بذكاء وحكمة ان يجذب الفاعلين السياسيين اليه بإقرار الوزراء ورجال دولته على مناصبهم في بادئ الامر .وأوكل للوزير يوسف صاحب الطابع تسيير امور الدولة وارتبط بكبار رجال الدولة بالمصاهرة .وقف الوزير يوسف امام الفاسدين من اولاد الباي ورجال الدولة الذين تضايقوا من تضييق الوزير فتأمروا عليه فصوروا للباي محمود ان الوزير يوسف يحيك مؤامرة ضده ودون تحقيق امر بقتله وحل مكانه محمد العربي زروق الذي هو الاخر تعرض للقتل سنة 1822 عندما ظهر انه اقوى واغنى من الباي نفسه.ان مقتل الوزير يوسف عرض ادارة الباي للضعف والخلل واستغل الجند الفرصة لإعلان ثورتهم الثانية سنة 1816 لكنها لم تنجح بدأت مظاهر الضعف والانحلال تتسرب الى مؤسسات الدولة ولم يكن بمقدور الباي محمود مواجهة الظرفية حيث بدأت الصعوبات منذ سنة 1815 لما انقلبت موازين القوى لصالح الدول الاوروبية التي تمكنت من فرض تفوقها العسكري والاقتصادي وفرضت شروط تبادل تجاري لصالحها ولصالح رعاياها الموجودين بتونس . اما على المستوى الداخلي فقد عرفت البلاد بداية من سنة 1814 سلسلة طويلة من سنوات الجفاف وكذلك ظهور الوباء في شهر اكتوبر 1818 الذي ادى الى فراغ ديمغرافي انعكس على الانتاج الفلاحي الذي عرف بدوره انخفاضا كبيرا. تمثلت اهم نتيجة لهذه الظرفية في تقلص موارد الدولة وخاصة منها موارد القطاعات التي كانت مرتبطة بأوروبا مثل النشاط البحري والتجارة الخارجية .واتجهت الادارة لفرض ضرائب على السكان وهذا ما ولد ردود فعل مختلفة في المدن والأرياف . توفي الباي محمود في سنة 1824 وخلفه ابنه حسين .فما هي الوضعية التي ورثها حسين باي عند توليه الحكم سنة 1824؟

**ولاية حسين باي (1824-1835**) : خلف حسين باي والده محمود باي في حكم تونس الا انه ورث دولة يعمها الضعف من جميع النواحي .اتسعت دائرة الفساد وتواصل الركود الاقتصادي للبلاد ولم يتمكن الباي حسين من معالجة الامور برغم من وجود كفاءات جيدة في الادارة امثال محمود الجلولي القائد العام للقوات العسكرية وشاكير صاحب الطابع الوزير الاكبر . ولما كانت الدولة في حاجة الى الموارد المالية فقد اتبعت اسلوب الشدة في جباية الضرائب ولهذا كثرت المصادرات والغرامات والاحتكارات. وعانى السكان من ذلك فترة طويلة .ولذلك يمكن اعتبار عهد حسين باي بداية الازمة المالية في تونس التي ستزداد تعقيدا في عهد خلفائه. ومما لا شك فيه ان المنافسة الاوروبية والتدخل الاقتصادي الاوروبي ادى الى هذه الازمة . وفي هذه الفترة توترت العلاقات السياسية بين الجزائر وفرنسا وادى ذلك الى حصار الجزائر سنة 1827 واحتلالها سنة 1830.ولم يكن حسين باي يدرك ابعاد هذا الحدث الخطير وكان موقفه من النزاع الفرنسي الجزائري يتأثر بعدة نواحي منها العداء التقليدي بين الجزائر وتونس وإطماع الباي في التوسع على حساب الجزائر. ولهذا نجد موقف حسين باي سلبي اتجاه معاناة الجزائريين .فلم يكتف بالوقوف على الحياد تجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر بل ارسل وفدا لتهنئة القائد الفرنسي د يبرمون وقد توصل به الاعتقاد ان فرنسا قادمة لتأديب داي الجزائر ومن ثم العودة الى فرنسا والحقيقة ان فرنسا حذرت حسين باي وهددته وهي تقدم على احتلال الجزائر . فرضت فرنسا على حسين باي معاهدة 8 اوت 1830 التي فتحت البلاد التونسية امام توغل الرأسمالية التجارية الاوروبية . فقد تضمنت هذه المعاهدة الغاء القرصنة وإلغاء استرقاق المسيحيين وضمانات تجارية وإلغاء الجزية التي كانت تدفعها الدول الاوروبية اضافة الى اعادة الامتياز الفرنسي المطلق بحق صيد المرجان الذي كانت فرنسا تتمتع به منذ سنة 1799. كان باي تونس قد اتخذ موقف الحياد حتى يسير بذلك صوب سياسة تعمل على تدعيم استقلاله والظهور بمظهر الحاكم المستقل وان كان ذلك على حساب التضامن بين اقطار الشمال الافريقي .والواقع ان فرنسا استغلت هذه النزعة عند باي تونس لكي تفصل بين تونس والدولة العثمانية من ناحية ولكي تزيد نفوذها في هذه المنطقة من ناحية اخرى. توجه باي تونس بانظاره الى طربلس الغرب التي كانت تعيش هي الاخرى اضطرابات في الحكم حيث انقسمت الاسرة القرمنلية على نفسها وبسبب صراع اسري حاول الباي استغلال هذه الاوضاع ليراسل السلطان العثماني بشان ضم طرابلس الى تونس.ولكن السلطان العثماني فرض شروطا مالية كبيرة على باي تونس الذي كان عاجزا عن دفعها .توفي حسين باي سنة 1835 دون ان يحصل على شئ.

**الدرس الحادي عشر :**   **ولاية مصطفى باي(1835-1837):**  كانت مدة حكمه قصيرة حيث شهدت فترته تزايد النفوذ الاوروبي على المنطقة .كما شهدت تدخل الباب العالي في تونس ومطالبة مصطفى باي بدفع مبلغ سنوي من المال بعد حصوله على فرمان التولية .وامام ذلك لم يبق على الباي الا اللجوء الى مساعدة فرنسا بالرغم مما عرف عنه من نفور من فرنسا .كانت فرنسا ترصد تحرك السلطان العثماني ،وكان هدفها في هذه المرحلة ابقاء تونس على حالها وترفض اي تغيير في كيانها السياسي .وصارت الدبلوماسية حريصة على التأكيد على استقلال الباي والتقليل من صلاته مع السلطان . سيطر القلق على الباي وخشي ان يلقى مصيرا كمصير القرمنليين الذين تم ازاحتهم من الحكم بعد حوالي اسبوع من بمجيئه الى الحكم ،وإعادة السلطنة العثمانية سيطرتها المباشرة على طرابلس(27 ماي 1835).كل هذا تأثر باحتلال الفرنسيين للجزائر واضطراب الاوضاع في طرابلس وتردي الاوضاع الاقتصادية ،وازدياد الاطماع الاوروبية بها ،ولاسيما الاطماع الفرنسية التي تجاوزت الجزائر الى تونس .ولم يكن امام الباي الا ان يسلك سياسة مدارة الاطراف المتصارعة في الظاهر ،وان يستغل احدهما ضد الاخر .وتزامنت هذه المرحلة من فترة مصطفى مع ظهور الصعوبات الاقتصادية والسياسية من جراء سياسة الاحتكار الحكومي والمنافسة الاوروبية والتدخل الاقتصادي الاوروبي في تونس .كل ذلك ادى الى تناقص هيبة الدولة التونسية التي رحبت بالاحتلال الفرنسي للجزائر اعتقادا منها ان ذلك سينقذها من خطر الفرنسيين .ويتابع خلفاء مصطفى باي الطريق نفسه للحفاظ عاى مراكزهم في السلطة**. ولاية احمد باي (1837-1855)** : حاول احمد باي توظيف التنافس الدولي لصالح استقلال تونس .وقام بالإصلاحات متأثرا ما قام به محمد علي باشا في مصر .وبدا بالإصلاحات بالجيش واستدعى مدربين ايطاليين وفرنسيين وانجليز .وتوجه عمله بتأسيسه سنة 1840 مدرسة باردو العسكرية لتكوين الضباط على الطريقة الاوربية .وكانت اول مدرسة تعليمية احتوى برنامجها على مواد علمية عصرية.كما اهتم احمد باي بتكوين اسطول حربي ،فاشترى عددا من السفن الحربية ،وأحدث مرسى حربيا بحلق الوادي . كما انشا عدد من المصانع لتلبي حاجيات الجيش النظامي .وكلفت هذه الانجازات العسكرية والصناعية الدولة مصاريف كبيرة جدا. مال احمد باي الى الاكثار من عدد الجند حتى وصل عددهم الى حوالي 30الف جندي .وفرض التجنيد الاجباري مما ادى الى حرمان البلاد من الايدي العاملة الضرورية للأرض والصناعة. وفي سنة 1849 انتشر وباء الكوليرا في تونس وفتك بالسكان بما فيهم الجند .وأمر الباي بتعويضهم بالرغم من اشتداد الازمة المالية .ومن اجل توفير نفقات الجيش المتزايدة ،اتبع الباي سياسة اقتصادية تقوم على احتكار عدد من المواد والصناعات مثل الصابون ،الملح،التبغ،العسل،الجلد،البارود وغيرها من المواد المهمة التي زاد في اسعارها .يذكر احمد بن ابي الضياف انه في سنة 1853 حدث انهيار مالي في تونس بسبب جمع عدد من العساكر لا تحتمله قوى البلاد الطبيعية ('فكثر المصرف على العسكر ولوازمه وقل دخل المملكة بنقص عملهم فيها).وفي نفس السياق اضطر احمد باي الى استحداث ضرائب جديدة ،وأطلق يد الجباة والملتزمين في رقاب السكان بصورة لم يعهد مثله قطر من الاقطار . كما اكثر من بناء القصور حيث بنى قصر الصيف في حلق الوادي وقصر المحمدية وقصر الصالحية رغم اشتداد الازمة المالية . عرف عهد احمد باي انه اصدر قانون يحرر فيه العبيد السود سنة 1846 ،وألغيت بذلك العبودية في تونس ،وكان لهذا القرار وقع كبير على المستوى الدولي ولاسيما على الدول الاوروبية رغم انه لم يحقق تغييرا جذريا في المجتمع التونسي. وفي النهاية يمكن القول ان اصلاحات احمد باي ادت الى ارهاق خزينة الدولة ،وبقيت نتائجها محدودة .وهذا ما يفسر هشاشة الاصلاحات التي لم تعمر طويلا عقب وفاته سنة 1855.وعلى كل حال فان فرنسا قد عملت على استغلال هذه الاوضاع المضطربة التي كانت تمر بها تونس وتترقب الفرصة السانحة للتدخل في الشؤون التونسية.

**الدرس الثاني عشر:**

**ولاية محمد باي (1855-1859):**  ورث محمد باي اوضاعا صعبة للغاية ،ولاسيما بعد ان ازداد نفوذ الاجانب في تونس .كانت الدول الاوروبية تريد المحافظة على امتيازاتها ،وتضمن لرعياها مزايا عديدة من اهمها مساواتهم بالمواطنين في الملكية وحتى العمل والتقاضي وغير ذلك من امور كانوا سابقا محرومين منها . حاول احمد باي معالجة الامور بتخفيف الضرائب الثقيلة التي فرضها احمد باي . وكان الغرض من ذلك تشجيع الفلاحين على العمل الزراعي .ولكن بالمقابل لم يضع حد لسياسة الاسراف والتبذير والاختلاس .وكان الفساد يعم مؤسسات الدولة ،وعرف عن وزيره للمالية ،مصطفى الخزندار انه كان على راس المفسدين . حاول محمد باي الاعتناء بالقضاء وحرصه على انصاف المظلوم من هذا المنشور الذي اصدره في 9 سبتمبر 1857 عرف بعهد الامان ،وهو بمثابة قانون اساسي .وقد صان هذا القانون حرية الافراد والممتلكات ،وساوى بين المسلمين وغير المسلمين امام القانون ،ومنح الاجانب حق التملك في تونس ،وفتح الباب لتسرب الاقتصاد الاوروبي الى البلاد. ان الاصلاحات التي قام بها محمد باي اوقعت تونس في قبضة الدول الاوروبية ،لان المشاريع التي اقامها في تونس كانت تحتاج الى قروض خارجية .وقد استدان الباي سبعة ملايين ونصف المليون من فرنسا لتنفيذ المشاريع ،وفي هذه الحال لا بد من الاعتماد على الخبرة الفرنسية صاحبة راس المال والخبرة في التنفيذ. وفي النهاية يمكن القول ان الظروف الدولية لم تكن في صالح محمد باي ،فكان رجل لا يحسن التسيير الحكومي ،يحكم دولة ضعيفة اقتصاديا وعسكريا وتكالب الاجانب عليه**. ولاية محمد الصادق باي (1859-1882)** : تميز عهده بصدور الدستور في اواخر شهر ابريل 1861،وهو اول دستور بالمعنى الحديث عرفه العالم الاسلامي حيث جعل الباي رئيسا للدولة ،واعترف بحق الوراثة في اسرته .كما اصبح الوزراء مؤولين امام مجلس تشريعي اعلى(المجلس الاكبر)مؤلف من ستين عضوا ،يتألف ثلثهم من موظفي الدولة ،ويستبدل اعضاء المجلس كل خمس سنوات .ولكن الباي ورئيس الوزراء سيطرا على المجلس وتعيين افراده ،مما حد بالمصلحين ،وعلى رأسهم خير الدين الى الاستقالة منه .وسيلغى الدستور بعد اربع سنوات من صدوره،مما يدل على شدة تسلط الدولة .ولم يهتم الناس بالدستور لانه لم يعدل من وضعهم السئ.وعارضت معظم الدول الاوروبية تطبيق الدستور لأنه حرمها في الواقع من الحصول على الامتيازات . كانت المشكلة العويصة التي واجهت الحكومة التونسية ايجاد المال لتموين الاصلاحات ،ولاسيما تمويل الجيش الجديد ،ومشروعات الاصلاح الاخرى .اضطرت الدولة الى طلب القروض الاجنبية وكذلك الى اتخاذ عدد من الاجراءات الجبائية التي اثقلت كاهل السكان.وكانت اهم نتيجة اسفرت عنها الاجراءات العسكرية والدستورية والجبائية هي الازمة التي اجتاحت البلاد وتجسمت في انتفاضة سنة 1864 التي تزعمها علي بن غذاهم .وتعد هذه الانتفاضة من اهم الحركات الفلاحية التي تعرضت لها تونس بسبب سياسة الاستنزاف المالي السابقة التي افقرت البلاد والعباد .كانت الانتفاضة عارمة وشملت كافة انحاء البلاد وخاصة الساحل ومنطقة القبائل بالوسط وبالتحديد الجهة الغربية من البلاد . وهي انتفاضة ضد الجباية المجحفة حيث عمدت الدولة الى مضاعفة (المجبى)من 36 ريالا الى 72 ريالا وكانت الشرارة التي اشعلت الانتفاضة .ومهما يكن من امر فان السلطة العثمانية نجحت في قمع الانتفاضة واعتقال زعيمها سنة 1866.ومن اهم اسباب فشل هذه الانتفاضة انها افتقدت الوحدة في العمل ووضوح الهدف .واتخذ الباي ذريعة لتعليق الاصلاحات والدستور .

ساءت الحالة الاقتصادية وازدادت القروض الاجنبية ،واجبر الباي في 1869 على قبول وصاية لجنة مالية دولية ،ووضعت بموجب ذلك مالية تونس تحت حماية فرنسا وبريطانيا وايطاليا (الكمسيون المالي. وكانت النتيجة ان فقدت الدولة التونسية حرية التصرف في شؤونها المالية .كما فقدت استقلالها السياسي انذاك الاان الاوضاع في اوروبا اخرت العملية الى سنة 1881.وفي هذه الاثناء جاء الوزير خير الدين (1873-1877)بإصلاحاته التي دعا اليها في كتابه (اقوم المسالك في معرفة احوال الممالك).ولكن خير الدين اغضب بسياسته الداخلية والخارجية الجميع ،فتألب عليه قناصل الدول الثلاث والمعارضين له ، وعمل هؤلاء على تحريض الباي ضده ،فاضطر للاستقالة من منصبه سنة 1877 ،وعين الباي مكانه محمد الخزندار رئيسا لوزارة انتقالية .ثم بعد اشهر استقال محمد الخزندار بحجة كبر سنه ،وعين الباي مصطفى بن اسماعيل رئيسا للوزراء.

عادت الفوضى من جديد الى الادارة التونسية ،وعاد بيع الوظائف الحكومية .وعادت الصعوبات الى ما كانت عليه من قبل .وتهيأت الظروف الداخلية والخارجية لتقدم فرنسا على حسم الموقف لصالحها . كان التنافس على اشده على تونس بين فرنسا وانجلترا وايطاليا لأسباب تتعلق بالدرجة الاولى بالمصالح الاستراتجية .وتأثر هذا التنافس بالوضع الدولي العام وبخاصة بالأزمة الشرقية سنة 1875 وقيام الحرب الروسية التركية سنة 1877 .وتقرر مصير تونس في كواليس مؤتمر برلين سنة 1878. وحدث في هذا المؤتمر ان اطلقت انجلترا يد فرنسا في ممارسة سلطتها على تونس مقابل انجلترا سيطرتها على قبرص .وحصلت فرنسا على موافقة المانيا على ذلك ،ولم يبق سوى معارضة ايطاليا التى حاولت الحصول على امتيازات في تونس .واستغلت فرنسا فرصة وقوع مناوشات على الحدود بين قبيلتين تونسية وجزائرية ،وغزت الاراضي التونسية بدعوى تأديب قبيلة خمير المعتدية في نهاية شهر ابريل 1881. دعت فرنسا الباي الصادق الى الاشتراك معها في حملتها العسكرية ضد رجال القبائل ،وسرعان ما وصلت القوات الفرنسية الى ابواب مدينة تونس ،واجبرت الباي على توقيع ميثاق باردو في 12 ماي 1881 الذي بموجبه اصبحت تونس محمية فرنسية .